نهضة العرب العلمية

في القرن الأخير

محاضرة الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لقد تكلمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم اقتداءً بغيرهم من الامم اللائي كن مفككات مبعثرات، فما زلن يسعين في الانضمام إلى أن أصبحن كتلة واحدة. ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي[1] الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية كما اخترنا النادي العربي منبراً للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه، وإنما كان الفرق بين البحثين أن الواحد منهما سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه إلا بالمقدار الذي تسمح به المصلحة، وأن الآخر علمي بحت يقدر أن يستقصي فيه الباحث ما شاء دون أن يتعرض لمحذور أو بعرض امته لضرر، وبهذه المناسبة أعلن أني آسف بل جد آسف من أن أرى بعض اخواننا معتقدين

---

(١) من غريب الاتفاق أن يلقي الامير العلامة هذه المحاضرة الجامعة في المجمع العلمي في المكان الذي اجتمع فيه لأول مرة في مقتبل شبابه بمفتي دمشق الشيخ محمد المنيني الذي كان يقطن يومئذ في المدرسة العادلية التي كان له حق التولية عليها يومئذ.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن الانسان إذا حاضر في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها ، وأن يجهر بكل ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم ، فهذا لا شك مذهب من يسميه الافرنج « بالولد الهائل » ومن ليس في الواقع جديراً بأن يطرق باب السياسة أصلاً بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب ، فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال الهائلين ولا من الذين لا يعرفون الى أين يذهب الكلام ، بل نحن ولله الحمد من أمة اشتهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ وقد جاء في أمثالها : اللبيب من الاشارة يفهم ، ولقد كان هاديها الأعظم صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، ومنا الذي يقول :

ومن لم يصانع في امور كثيرة يضرس بانياب وهوطاً بمنسم

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيدنا عمر رضي الله عنه أنه أشعر العرب لقوله : ومن ومن ، ثم أبدأ بالكلام عن نهضة العرب العلمية فأقول :

منذ عشر سنوات (أي سنة ١٩٢٧) اقترح علي الطيب الذكر الاستاذ يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف الذي انتهت اليه رئاسة المجلات العلمية أن أكتب الى المقتطف شيئاً في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الأخيرة ، فكتبت يومئذٍ فصلاً ظهر في أجزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلامة المشار اليه كثيراً وقد بدأته بما يلي :

لا حاجة بنا الى القول بأن أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم ، وعندي انه لانهضة للامم سوى النهضة العلمية فاذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية الخ ... آخذاً بعضها برقاب بعض . فاذا قلنا إن الشرق الأدنى نهض نهضة علمية كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيه ، لأن العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء ، وكل نهضة لا يكون ظهيرها العلم فما هي إلا ساعة وتضمحل ؛ وقد يقال ان نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحق أن تذكر بالقياس إلى معالي الامم الراقية ، واننا لا نبرح متخلفين بمساوف شاسعة عن أمم أوربة وأميركة واليابان ، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيزاً في التاريخ العام ؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلقاً بالكمال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحده ، ولا البحث موقوفاً دائماً على ما بهر النهى وبلغ سدرة المنتهى ، وإنما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى ، والبحث هو الذي به توزن مقادير الاشياء وتحدد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت ، ثم اننا إذا تحرينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيأ لاوربة أن تجتازه قبلاً في أطول جداً من هذا الردح من الدهر ، وذلك انه من الطبيعي أن يسهل على المتأخر ما لا يسهل على المتقدم ، لأن المتقدم قد يضطر أن يمهد الطريق ويسير ، وأما المتأخر فما عليه إلا أن يلحقه ويسير على طريق مذلل أمامه .

محمد علي الكبير مؤسس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية إخراجاً لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الادنى بحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر فهو أول من لحظ الخطر الحائق من جراء جموده علي أساليب العمران القديمة وجعل نصب عينه تحديا الغرب في أساليبه الجديدة حتى يتأتى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقل بنفسه ، إذ كانت سنة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كلما تقوى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلة والمسكنة .

فمحمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سورية ، وأول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة إنما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاة ولده ابراهيم باشا للشام ، ثم انكفأ ابراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدد ، وجد السوريون لا سيما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنية الغربية لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الاميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشهيرة التي كانت النبراس الاول الذي استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق الى يومنا هذا . ورأت امم اخرى (كالفرنسيين والالمان والطليان والروس) ان ارض سورية قابلة جداً لبذور المعارف فبثوا فيها المدارس والكتاتيب وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام ، ففي بيروت والحق يقال ابتزغ زرع العلم العصري وأخرج شطأه ثم أنبت في جميع الشامات ثم فيما جاورها واستغلظ واستوى على سوقه يعجب حتى الزراع الاوربيين انفسهم ، واضطرت الدولة العثمانية ان تفتح المكاتب الرشدية والاعدادية في سورية ، وأن تقبل كثيرين من شبانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرج فيها ألوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية أو عدلية ، ومنهم أطباء وصيادلة ، ومنهم ضباط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الأقران . ان ضباط العرب في العراق وسورية واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب (بانغالتي) في الاستانة ، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال .

ومع ان النهضة العلمية في مصر لم يكن الاصل فيها لا الكلية الاميركية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة في الاستانة ، لا ينكران مصر كانت ميداناً لجياد القرائح السورية ، وأن أنبغ الذين تخرجوا في بيروت إنما ظهروا واشتهروا وتعلقت فنادياهم بمصر ؛ هذا كما ان لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الازهر وتخريج عدد كبير من أطباء سورية بالقصر العيني ، فما زال كل من القطرين المصري والشامي يشد الواحد منهما الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي العقلي ، وقلما جد في أحدهما شيء إلا سمعت رجع صداه في الآخر . على ان النهضة الشرقية العربية وان كان قد ذر قرنها منذ قرن فأكثر لم تسر هذا السير الحثيث إلا في الخمسين سنة الاخيرة التي شهدها كاتب هذه الاحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لاني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العلمية في سيرها منذ ٢٥ سنة متوالية ، فلي الحق إذاً بان أدعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخل فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم امين للعلم زاول عمله في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يتخلف يوماً واحداً .

الصحافة

لا نزاع في ان الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض الى أهل الشرق النائم ، وقد كان بحسب معلوماتي ، وربما أكون مخطئاً في بعضها ، أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الوقائع المصرية بعهد محمد علي ، ولكن بقيت سورية مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة ، ويقال ان اول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة « حديقة الاخبار » أنشأها خليل افندي الخوري من شعراء لبنان في وقته وذلك سنة ١٧٦٠ ، ثم اصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد ، ولم يلبث ان نشر جريدة اسبوعية باسم الجنة ، ثم جريدة يومية باسم الجنينة ثم مجلة شهرية باسم الجنان ، وقد التزم هذه المادة في التسمية لمناسبتها مع اسمه « البستاني » ، و كان اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية ، ثم أصدر القس لويس الصابونجي جريدة النحلة ، واصدر غيره جريدة اسمها النجاح ، واصدر الامريكيون جريدة اسمها النشرة الاسبوعية ، ثم تحرك المسلمون فاصدروا جريدة سموها ثمرات الفنون ، وكانت تصدر بادارة الشيخ عبد القادر القباني ، وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الاسير ثم خلفه عليها العلامة الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي ، وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و ١٨٨٠ اي في مدة عشرين سنة ، فوجدت في بيروت في ذلك العهد عدة مطابع ، وصارت تطبع الكتب العربية بعد ان كان طبع الكتب العربية منحصراً في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر ، وكانت قد صدرت في الاستانة في اثناء حرب القريم سنة ١٨٥٥ جريدة مرآة الاحوال وذلك بامر الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب الشهير ، وقد وقعت إليّ عدة نسخ كانت باقية عندنا من تلك الجريدة فيها اخبار حرب القريم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وغيرها من الاخبار ، ومما اتذكره انه كان عند ذكر خديوي مصر يلقبه بسعادة عزيز مصر ، واظن ان جريدة مرآة الاحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية ، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات الى ان فر رزق الله حسون من الاستانة الى اوربة على اثر حادثة جرت معه ، وقيل فيها انه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار ، وكان فارس احمد فارس الشدياق في باريس فقدم الى الاستانة وانشأ جريدة « الجوائب » المشهورة فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم ، وكان لها مشتركون في جميع الاقطار الاسلامية ، نظراً لبراعة كاتبها احمد فارس المعدود من اكبر كتاب القرون الاخيرة ؛ واما رزق الله حسون فبعد ان فر الى اوربة نشر كتاباً تحت عنوان « النفثات » نال فيه من الدولة العثمانية ، ومن صاحب الجوائب ، فاشار هذا إلى كتاب النفثات بقوله : « كان حسون لصاً وله سرقات ، فانقلب صلاً وله نفثات » .

واظنني غير مخطئ اذا قلت انه لذلك العهد او بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها « الرائد التونسي » وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم وادي النيل ، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها ، ولست محاولا في هذه العجالة الاحاطة باسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت وتواريخ صدورها ، نما انا أذكر الان اشهرها على سبيل التمثيل وأقول : انه لما انتشرت جريدة الجوائب بمكان احمد فارس من علم اللغة وبراعة الانشاء وسعة المدارك كانت عاملاً قوياً من عوامل النهضة العربية الادبية ، وصار صاحبها يطبع في الاستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة ، والتي اطلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية ما اعجب به العالم العربي كله لا سيما انه نشرها باطبع الجميل ، وربما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق ، واني قد ادركت ، وانا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، عهدَ احمد فارس في اواخر عمره وكان لا يزال ، وقد بلغ من العمر عتيا ، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من اعلامها ، ومن شاء ان يعلم مدى براعة احمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربي ، فليراجع مجموعة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ — ١٨٨٠.

الحركة العلمية

ولنعد الى سير الحركة العلمية في سورية فنقول : انه إلى حد سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعداها إلى غيرها من مدن سورية ، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية للولاية باسم (سورية) وبعد ذلك بكثير أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها (الشام) ، وبعده أصدر الاستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها (المقتبس) ، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باسم (الفرات) ، وكل من جريدتي سورية والفرات كان نصفها بالتركي والنصف الآخر بالعربي وقلما كانت تنشر شيئاً خارجاً عن الأخبار الرسمية . وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها (الزوراء) على هذا النمط أيضاً . وأما بيروت فكانت لا تزال على تقدمها في طريق العلم والعرفان ، وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني ثم أخذت كل طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سورية تؤسس مدرسة داخلية في بيروت ، فكانت للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها (البطريركية) وللموارنة مدرسة يقال لها (الحكمة) وللمسلمين مدرسة يقال لها المدرسة (السلطانية) تولى ادارتها مدة من الزمن العلامة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي صاحب الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين ، و كان اليهود أيضاً أسسوا مدرسة داخلية باسم المدرسة (الاسرائيلية) كان يديرها زاكي كوهين .

و كان اليسوعيون قد أنشأوا الكلية (اليسوعية) مناظرة للكلية الامريكية ؛ و كان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان يقال لها (مدرسة عينطورة) انتفع منها كثير ممن اشتهروا في اتقان اللغة الفرنسية ، ثم شرع أساقفة الموارنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يؤسسون مدارس لأبناء طائفتهم فكانت مدرسة (قرنة شهوان) ومدرسة (غزير) لبني زوين ومدارس أخرى متعددة ، وقد كان للموارنة من قبل هذا مدارس قديمة أكليريكية مثل مدرسة عين ورقة ومدرسة مار عبدا هرهريا ومدرسة مار يوحنا مارون ، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير ، وقد اطلعت على مطبوعات قديمة ترجع إلى مئة سنة أو أكثر جرى طبعها في كسروان بمطابع للموارنة منها مطبعة دير سيدة طاميش ، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية .

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بانشائها الامير ملحم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوق لطائفة الدروز في قرية عبية ، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها الى سنة ١٨٦٢ .

وكانت تقبل الطلبة مجاناً لاعتمادها في نفقاتها على الاوقاف التي ألحقها بها الأمير المشار اليه ، ولما تولى قائمقامية الشوف ابن عمه الامير مصطفى زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الأساتذة مثل العلامة الشيخ أحمد عباس البيروتي وأمثاله ، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على ادارتها الآن الاستاذ عارف النكدي مدير العدلية في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراية والأمانة وعلو الهمة .

ثم نقول : انه كان ازدياد عدد الجرائد متساوقاً مع ازدياد عدد المدارس فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدم ذكرها جريدة لسان الحال لصاحبها خليل سركيس وجريدة التقدم التي كان يتولى تحريرها أديب اسحق الكاتب المشهور في وقته ، وجريدة المصباح التي أنشأها المطران يوسف الدبس مؤسس مدرسة الحكمة ، وعهد بإدارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقاش من أعضاء مجلس الامة العثماني ؛ وإلى بولس زين من ادباء الموارنة ، وكانت مجلة المقتطف قد صدرت في بيروت لصاحبيها العلامتين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر ومن أول نشأتها كانت مجلة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية .

ومما لا جدال فيه ان للمقتطف أثراً بليغاً في عموم النهضة العربية ولاينكره إلا كل مكابر ـ ومن مساعي العلامتين الشهيرين صروف ونمر تأسيس مجمع علمي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في بيروت سموه المجمع العلمي الشرقي قد ضم نخبة العلماء والادباء الذين كان يشار اليهم بالبنان في ذلك الوقت ، ولم يكن هذا المجمع أول مجمع علمي في بيروت بل قد سبقه جمعية علمية تأسست قبل ذلك بنحو من عشرين سنة ، كان رئيسها الأمير محمد الأمين أرسلان ، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدب والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف والسيد حسين بيهم وسليم أفندي رمضان وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه .

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أتذكر كان الشيخ عبد المجيد الخاني الاديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت فذكر ما رآه فيها من الرقي الفكري وسرد اسماء جرائدها نظماً فقال :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها بلسان مصباح التقدم قائلُ
ظل المعارف وارف في أرض بيرو تورهط الفضل فيها قائلُ[1]

ثم أنشأ علي بك ناصر الدين مجلة اسمها الصفاء صارت فيما بعد جريدة سياسية ولا تزال إلى هذا اليوم قائمة حق القيام بخدمة العلم والادب ، وقد كان لي فيها أول مقالة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥ ، وأصدر عبدالقادر افندي الدنا جريدة باسم بيروت كان يكتب فيها الاستاذ البليغ السيد مرتضى الجزائري ابن أخي المغفور له الامير عبد القادر .

ثمانون جريدة في سورية

ولكن عدد الجرائد لم يزدد هذا الازدياد الرائع إلا بعد إعلان الدستور العثماني ، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر ، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية إلا انه لما اعلن الدستور العثماني وتقررت حرية الصحافة أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة فلما نشبت الحرب الكبرى كان ينشر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة

(١) الاولى من القول والثانية من القيلولة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر في هذه البلاد مجلات شهرية واسبوعية لا تقل عن بضع عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات . وهذا أول دليل على سرعة الرقي العلمي في سورية ، وليس في الكلام أفصح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس ، نعم انه لا يزال عدد الاميين كثيراً في هذه البلاد وربما بلغ مع الأسف ٦٠ بالمئة ، ولكن المظنون بحسب ما نراه من إقبال الأهلين على تعليم أبنائهم أنه لا يمضي عشر سنوات حتى ينزل عدد الاميين الى ٢٠ بالمائة . وقد كان في بيروت بضع عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرتين وثلاثاً ، وتأسست مطابع كثيرة في سائر المدن السورية ، وليس عمل هذه المطابع كله منحصراً في طبع الجرائد بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تطبع إلا إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عدداً كافياً من المشترين . وان مكانة الصحافة الآن في سورية ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقل عن مكانة الصحافة في اوربة ، فاما في مصر فما لاشك فيه ان الصحافة أرقى منها في سورية لأن ثروة مصر أعظم من ثروة سورية بكثير ، وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا أي سنة ١٨٨٢ يصدر في مصر بضع جرائد لا غير منها الاهرام واللطائف والمفيد وغيرها ، فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن تضاعف مراراً ، وان بعض جرائدها اليومية تصدر بثماني صفحات أو ست عشرة صفحة . ومنها جرائد مصورة كثيرة وربما تطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ٣٠ إلى ٤٠ الف نسخة وقد أكد لي أحد الأخباريين الاوربيين الذين يراسلون الاهرام من امهات الجرائد المصرية أن هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الانقان وسعة النفقات وكثرة القراء لكانت معادلة لأحسنها .

ولما كانت الامثال أحسن مظهر لحقائق الاشياء وأبلغ مؤثر في النفوس رأيت الآن إيراد مثال وقع معي ، وكنت قد ذكرته في مجلة المقتطف ، ومنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتبين الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة وحالتها منذ عشرين سنة :

قلت في المقتطف : انني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠ ، وكنا نجتمع في مجلس الامام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما كنا نسمر عند سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد أفندي زغلول وكان من المحامين المشهورين بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ علي يوسف ، إذا أتى جلس في آخر المجلس ساكتاً ولبث اكثر المجلس مستمعاً تكاد ترثي له لضعفه ولمسكنته ، وكان قد بدأ باصدار جريدة اسمها المؤيد كانت تظهر مرتين بالاسبوع وهو يعجز أن يجعلها يومية إلا أن هذا الرجل على ضؤولة جسمه كانت بادية عليه سيماء الهمة والعزم فزرته مرة في مطبعة المؤيد فرأيته جالساً على مقعد رث لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض ، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذ ، ولا يعرف كيف يصوغها وكانت بجانب الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة ، وبين الغرفتين باب مفتوح وأنا من مكان جلوسي أرى منضدي الحروف من خلال ذلك الباب يصفون الحروف ، ثم اني رأيت الشيخ عليا في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول الجديد ، وهو يكتب ويطامس ويمحو فقلت له : لو قلت كذا وكذا ... فأجابني : بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية فكتبتها أمامه ، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر ،

المؤيد تطبع ٣٠ الف عدد

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت ؟ وجدت جريدة المؤيد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع في كل يوم من ٢٠ إلى ٣٠ الف نسخة ، ووجدت إدارة المؤيد تكاد تكون قصراً من قصور الامراء فيها الزرابي المبثوثة والطنافس الحريرية الفاخرة بدلاً من ذلك المقعد الحقير ، عليه ذلك الغطاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القديم من الشيت بدون حشوة ، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيد اشتراها بخمسة آلاف جنيه ، مع أن تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه .

ثم وجدت الشيخ علي يوسف نفسه من أكتب كتاب مصر وأسيلهم قلماً ، فضلا عن اني وجدته عيناً من أعيان مصر وأشهرهم ذكراً ، ولم يغفل الشيخ عن أن يذكرني بزيارتي الاولى عندما كان على تلك الحالة الرثة ، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيته عليها يوم زيارتي الثانية ، فهذا المثال البارز كافٍ لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق (١) .

انتشار الصحافة في العالم الاسلامي

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي فصارت الآن منبثة في جميع الأقطار العربية ، ففي العراق بضع عشرة جريدة ومجلة منها ما هو في بغداد ومنها ما هو في البصرة ، وكذلك ظهرت جرائد في الحجاز قد كان أولها جريدة القبلة في زمن الملك حسين ، ولما استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها أم القرى ، ثم ظهرت جريدة اسمها صوت الحجاز في مكة وجريدة ومجلة في المدينة المنورة ، وصدرت جريدة الايمان للحكومة اليمانية في صنعاء ، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة حضرموت في جاوة ، كما انه يوجد في الهند مجلة عربية اسمها الضياء للاستاذ مسعود الندوي .

أما في المهجر فان للعرب نحواً من ٣٠ جريدة ومجلة : منها ما هو في أمريكة الشمالية وما هو في أمريكة الجنوبية ، وفي المهاجر العربية هناك من الكتاب

(١) لا حاجة بنا الآن إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين ولا إلى ذكر المجلات الشهيرة كالمقتطف والهلال والرسالة وأمثالها ، فان الأعلام الشهيرة لا تعرَّف ولا تحتاج الى تعريف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والشعراء والادباء والأطباء والفلاسفة نفر تفخر بهم أوطانهم ، وهم جزء متمم للعالم العربي الادبي لا يتم إلا بهم ، واني اشبه الجاليات العربية في وسط هاتيك الامم الاجنبية التي تحصى بمئات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العجمة لانهاية له ، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعها ومشاربها ، وهذا لعمري برهان الاصالة والنبالة وعلو الهمة ، فان الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بانسان ، وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تجد فيه على أبواب المخازن العناوين العربية فوق الانكليزية ، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوعة ما يكون قد درس بتمامه في البلاد العربية الأصلية .

وانك لتسمع الموسيقى ثمة العربية كيفما توجهت سواء من المغنين أو من الآلات الحاكية ، وإذا نظرت إلى النوافذ وجدت فيها الأقفاص من الفخار فيها الرياحين وأكثرها من الحبق الذي يقال له الريحان في دمشق وفي لبنان الحبق ، ويظهر أن العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض ، فأني قد وجدتها بكثرة في اسبانية وهي حافظة اسمها العربي فيقول لها الاسبانيول « هبقة » أي حبقة ، ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السوريين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أن كثيرين منهم يسكنون في حارات على حدة ، وربما بنوا قرى منفردة لأنفسهم ، وذلك ليكونوا أحراراً في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الاصلية ، فاذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سورية بما فيها من الأغاريد والأناشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان «التراويد» ، وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البربدي من زحلة ، وقد اجتمع فيه أبناء العرب فخلت نفسي في زحلة أو في أية بلدة من لبنان وكذلك قيل لي انهم في الاماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالمآتم فتندب النساء من جهة حول الميت ويندب الرجال من جهة أخرى ، وهم يذهبون ويجيئون وبأيديهم المناديل يهزونها في الهواء وهي ما كان العرب يقولون له المآلي واحدتها مئلاة ، إلا أن بقاء هذه الحالة عند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر ، لأن أعقابهم مع الأسف ذائبون إلا ما ندر في الجنسية الأمريكية ، وقلما رأينا من ذراريهم المولودين في أمريكة من يعرف اللغة العربية لا سيما الذين أمهاتهم من هناك ، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أميركة من أبنائهم ، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغن ، وحدثوني عن غيرهما ولكن هذا العوز لا ينسد مع الأسف ببضعة كتاتيب ، فالسوريون الذين في أميركة الشمالية يزيدون على ٢٠٠ الف نسمة ، وهم في الأميركتين جميعاً أكثر من نصف مليون .

وقد قيل لي : إن أعلى المهاجرين العرب همماً من جهة الاحتفاظ بلغتهم هم مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلات راقية وجرائد مفيدة كما يوجد مثل ذلك في نيويورك ، ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة ابنائهم ، بل أسسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية ، يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلم بها أهل البرازيل ، أما إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة على العرب في أمريكة الشمالية فلا يمضي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتى ينقرض منها مع الأسف كل شيء أصله عربي ، ويصير وجود العرب في تلك القارة خبراً من الأخبار التاريخية .

الصحافة العربية في شمالي افريقية

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنا في صدده فنقول : إن شمالي افريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة ، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعول عليها كل امة ناهضة ، ولم يكن في بادئ الامر بغير تونس جرائد عربية مغربية ، وقد تقدم ذكرنا لجريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر فيما أذكر من قبل احتلال فرنسة لتونس أي منذ ستين سنة وبعد ذلك صدرت في تونس جرائد اخرى ، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدة جرائد ومجلات راقية كالزهرة والنهضة والصواب والمجلة الزيتونية وغيرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها المبشر ، وأظنها كانت الجريدة الرسمية للحكومة إلا أن الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعددة في مدينة الجزائر وفي قسنطينة أتذكر منها « البلاغ » « ووادي تراب » ، وأما اليوم فمن أشهرها جريدة البصائر ومجلة الشهاب ، ولم يقتصر اخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها ، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيس المحتلين لبلادهم وللمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية عربية اسلامية باللغة الفرنسية وذلك على نسق مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج « لاناسيون آراب »[1] ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتاً ، خلافاً للاجانب فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك ، بل كان محظوراً إدخال الجرائد العربية الصادرة في البلاد الاخرى إلى المغرب ، وربما عوقب من وجد قارئاً لجريدة كهذه ، إلا أن الاهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من أجل هذا الضغط الشديد على حرية القراءة في بلادهم حتى سمحت من سنوات لبعض الادباء بإصدار مجلة علمية في الرباط اسمها المغرب أذنت لها في الظهور على شرط أن تكون موالية للحكومة فاضطر الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلة افرنسية في نفس باريز باسم المغرب Magreb جعلوا ادارتها بيد ضيف سورية الحالي روبير جان لونغة[2] الذي جاهد هو وأبوه كثيراً في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا وفي منحهم جميع الحريات التي لهم الحق فيها ، فلما ظهرت مجلة مغرب ، وأقبل شبان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الافرنسية من المقالات القيمة والآراء السديدة ما أحدث تأثيراً عظيماً في نفس باريس ، انتقمت السلطة من تلك المجلة بمنعها من دخول المغرب نفسه ، فأصبحت في المقيم المتعد مع الوطنيين

(1) La nation arabe
(2) Robert Gean Longuet

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي ، ومنذ سنتين تمكن السيد محمد ابن الحسن الوزاني من زعماء النهضة الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سماها عمل الشعب [1] وجعل مديرها افرنسيًا حتى لا تتمكن السلطة من تعطيلها ، فلما ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدة الصحف الفرنسية الصادرة هناك ، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافًا للقانون ، فبقي أهل المغرب يئنون من هذا الضغط إلى أن تولت فرنسة ولله الحمد الوزارة الشعبية في السنة الماضية فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرية الاجتماع والكتابة . وما زالت المراجعات مستمرة باصرار الى أن أذنت السلطة لعصبة العمل القومي باصدار جريدتين احداهما بالعربية اسمها الأطلس يتولى تحريرها السيد محمد اليزيدي ، واخرى بالافرنسية اسمها العمل الشعبي [2] يحررها السيدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية ، وصدرت أيضًا جريدة عمل الشعب للسيد محمد بن الحسن الوزاني ، وجريدة اخرى بالعربية يقال لها الوداد كما انه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلها الاسبانيول جريدة الحياة للسيد عبد الخالق الطوريس ومجلة السلاح للسيد محمد داود ، وأما في طراباس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طراباس واخرى في بنغازي ، ولكن الطرابلسيين يقرؤون الجرائد العربية التي ترد اليهم من الشرق والغرب بلذة زائدة ولا عجب فان علاقتهم من جهة الشرق مع مصر والشام ومن جهة الغرب مع تونس هي علاقات أقطار شقيقة ، وفي زنجبار من شرقي افريقية مطبعة سلطانية من قديم الزمن ، اطلعنا على كتب مطبوعة فيها ، ومؤخراً وصلت الينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه .

فهذه هي لمحة دالة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الاخيرة

(1) L'action du peuple
(2) L'action populaire

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا نزعم فيها الاحاطة وإنما نجتزئ بالاشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث وبالجملة فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدم الى الامام .

المدارس في العالم العربي

ان الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لاجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقي ، بل المقياس الاكبر هو المدارس ، فمدينة بيروت مثلاً وعدد سكانها نحو من ٢٠٠ الف نسمة فيها من المدارس والجامعات ما لو قرنته بجامعات أوروبة ومدارسها لم تكن قاصرة عنها ، وربما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكان . وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ الف نسمة ، فبحثت عن عدد المتعلمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الاميرية ، وأحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الاستانة فبلغوا مائة شاب ، فاذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاب العلم من أهلها لا يقل عما يجب أن يكون في أية بلاد راقية ، وليس هذا المثال وحيداً في بابه ، بل له أمثلة كثيرة في سورية وان كنت لا أزال أتأسف من بقاء الامية في البلاد الى هذا الوقت أكثر مما كنت أظن وذلك بغلبة البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم ، ولم يكن هذا كله من تقصير الحكومة وفقد ارادة العمل ، وانما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عما يجب أن تكون ، ومن الغريب ان الامية في مصر لا تزال أكثر منها في سورية بالرغم من ان بين القطرين بوناً شاسعاً في درجة الثروة ، أما تقدم التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز منه للعيان بمدة قصيرة هو في المملكة العراقية لا سيما بعد أن حصلت على استقلالها ، فانه في وقت قصير أنشئت في العراق عدة مدارس عالية كدار المعلمين في بغداد والموصل ومدرسة الطب والثانوية المركزية وعدة مدارس ثانوية متوسطة ، وعدد لا يحصى من المدارس الابتدائية ، وفي العراق المدارس المسماة (رياض الاطفال)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيرة وهي أرقى من أمثالها في سورية ، والفضل يرجع في القان هذه الرياض الى المربي العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري ، ثم قد بلغني أن الكتبية من القاهرة وغيرها يصدرون كل سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية الى العراق وان هذا يزداد عاماً فعاماً .

أما في سورية فجامعتها العلمية تتألف من كلية الطب وكلية الحقوق والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين ، ومن فروعها دار المعلمين الابتدائية والعالية ، ومدرسة تجهيزية اخرى للبنات وفيها دار للمعلمات أيضاً ، ومدارس ابتدائية كثيرة ، وفي حلب مدرسة تجهيزية ومثلها في دير الزور ومثلها في حماة واخرى في حمص ، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سورية في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم ، وهذا ما نأمل الوصول اليه في غير بعيد من الزمن ولا سيما بعد أن نالت البلاد استقلالها فانه لا يرجى نهضة علمية إلا بنهضة سياسية فهاتان توأمان دائماً ، وقد بلغني من وزير المعارف الدكتور الكيالي أنه لما ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الاولاد الذين يريد أهلوهم إدخالهم فيها ، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها ، كما أوصى مديري الكتاتيب الاهلية الحرة بأن يقبلوا كل من يأتيهم على أن تؤدي اليهم الحكومة النفقات اللازمة ، فيقظة الامة ولا سيما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة الى استدلال .

المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجمعنا العلمي هذا الذي كان أول مجمع على نسق اكاديميات اوروبة في الاقطار الشرقية ، فانه يضم نيفاً ومائة عالم شرقي ومستشرق كلهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق ، وللمجمع مجلة علمية من أرقى ما صدر من المجلات في العربية وأدقها بحثاً وأحسنها اسلوباً وأجمعها للنوادر وأحفلها بالفوائد ، ولا يستغني متخصص في العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إذا أراد جد الاطلاع عليها عن اقتناء مجموعة هذه المجلة منذ صدورها ، وقد سبقت سورية مصر في تأسيس هذا المجمع ، ولكن مصر عادت فسدت هذا العوز بتأسيس مجمعها الحالي ، فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكل ما أوتي من قوة ووسائل . ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معاً الى الامام خطوات واسعة ، وان حكومتي القطرين تشد أزرهما بالمال الى الحد الذي يمكنهما من القيام بخدمات جلى للعربية والعروبة كما هو الشأن في أكاديميات الممالك الاوروبية ، فان أمام العرب مهمات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم وكشف دارس مدنيتهم والتنقيب عن دقائق تاريخهم لا يقوم بها إلا هذه المجامع العلمية التي هي أيضاً لا تقوم إلا بتوفير أقساطها من الميزانية المالية ، ولست متعرضاً الآن إلى الكلام عما قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بإيجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر ، وإحياء ما وجد منها في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له ، فان من شاء أن يعرف طائلا من هذا الأمر يقدر أن يراجع مجلات هذين المجمعين .

وإنا نكون غفلنا عن الحق وأهملناه جانباً إذا كنا لا نقول إنه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين لم يكن بقي أثر من آثار اللغة العربية فضلاً عن الشريعة الاسلامية ، فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الاولى قد وقت هذه اللغة من الدثور ، وهذه الشريعة من البوار ، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان إلا بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ، وتسلط على هذه الأقطار ولاة أتوا على الحرث والنسل ، وهدموا كل شيء وطمسوا كل رسم ، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعة بنوع خاص مع مساجد أخرى كانت تجري مجراها تقيم العربية على أركان ، وتصد غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الامكان ، فكيف تثبت هذه الشريعة وهذه العربية في وسط هذا الزوال . وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الاسلامي فيها الانهيار من كل جانب ، ان هذا لعجب عجاب !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا شك أن ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولها ورسوخ قواعدهما وغزارة القوة الحيوية التي فيهما . وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم مثل الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة مما لا يتيسر لي استقصاؤه الآن ، وإنما أشير إلى نتائجه الباهرة فانه لا يكابر مكابر في أن الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي وانتهت باستقلالها بالرغم من معارضات الانكليز تحت مختلف العلل إنما كانت ثمرة هذه المدارس ، لأن الذين تولوا هذا الامر هم العشرة الآلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل الواحد وتنجزوا الاستقلال التام لوطنهم تنجز المستميت باذلين من دونه دماءهم بذل السخي لماله .

أثر الزيتونة والقرويين والاموي

وكما قام الأزهر بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة العالية التي كانت تتكسر عليها أمواج الجهل والفوضى كذلك كان جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق ، ومنها ومن المساجد الاخرى خرج العلماء الأعلام والمصابيح الذين أناروا الاسلام في دياجي ذلك الظلام ، ومن هؤلاء أيضاً خرج أولئك العلماء الوطنيون الذين أرادوا ادخال العلوم العصرية في البلاد والتحقق بمعارف الاوربيين حتى لا يبقى الشرق مقصراً عن الغرب فكانت الجامعات والمدارس العصرية الكثيرة وكان إرسال البعثات العلمية الى اوروبة من أيام محمد علي إلى اليوم .

النهضة العلمية والدعوة الوهابية

ولا يظن ظان أن الحركه التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما كانت عليه قبل ، فأما في نجد والحجاز فلا يخفى ان الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء ، وهو عندهم بمقام الجهاد فترى المعلمين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للاحداث وربما شرقت قبائل من العرب وغربت والمعلمون معها حتى لا ينقطع التعليم بالرحيل ، فالامية في البلدان الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة ، ولكن يعترض بعضهم قائلاً :

ان هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقي المدني بل هو من النمط القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر ، وهذا القول مردود من وجوه ؛ أولا أن النجديين يلتزمون تعميم القراءة والكتابة في البدو والحضر فزوال الامية هو بنفسه درجة عالية من العلم ، ثم انهم يحفظون الأحداث القرآن الكريم ويفسرونه لهم بعد رشدهم ، وأي كتاب حث على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن ، وأي كتاب قدس العلم والعلماء ونوه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن .

الاصلاح والعمران في المملكة السعودية

ثم ان منزع النجديين في الدين منزع إصلاح وترقية وتنقية ، ومشربه بعيد بالمرة عن الخرافات فهو مشرب إصلاحي مستحب جداً في العصر الحاضر ، وإذا سألت الاوربيين أنفسهم قالوا لك: ان مثل هذا المشرب هو الذي فك قيود الافكار وحل عقال العقول في اوربة . وكان فاتحة عهد الارتقاء ، وكثيراً ما أطلق الاوربيون على الوهابيين لقب (بروتستان الاسلام) ، ثم ان هذا الملك عبد العزيز بن سعود امام الوهابيين القائم بتنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيد ؛ فهو يجهز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة ، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده ، وعنده التليفون والراديو ، وعنده السيارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها حتى صارت تلك الأرض الشاسعة تطوى طي السجل للكتاب ، ومن أعمال ابن سعود اعتناؤه بالصحة العمومية وتعويله فيها على الوسائل العصرية الحديثة ، وقد بدأ يستخدم الطيارات في الجيش ، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الانفاق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق ، ولكانت الادوات العصرية في جيشه لا تقل عن مثلها في أي جيش اوروبي ، ولكن المال قوام الأعمال ، ثم إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الامنة في السوابل فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود لأن الأمن العام ضارب أطنابه في بلاده كلها وواصل الى الدرجة التي يتحدث عنها المؤرخون في الكتب بعد ان كانت تلك الصحارى أشبه بمسبعة تزأر فيها الضواري من كل فج ، وبالاختصار فالوهابيون يقبلون كل إصلاح مالم يصادم الدين ، والعلم والدين لايتصادمان في الحقيقة إلا عند من لم يحسن فهم كل منهما .

النهضة العلمية في اليمن

أما اليمن فانه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين : عموم التعليم والامن الشامل ، فقد بلغني انه لا يكاد يوجد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلم الأحداث القراءة والكتابة ، وانه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلا فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشرعية ، فالامية في اليمن نادرة ، نعم لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم العصرية إلا نادراً وهي علة قد تزاح قريباً ، لأن العلوم الادبية لا بد أن تثير حركة في الافكار وتجعل نهضة في النفوس ، وهذه من شأنها أن ترتف بنشدان العلوم الطبيعية وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرهما . هذا وامام اليمن يحيى بن محمد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحر سيال القلم لا يغرب عن باله شيء مما يجب لترقية بلاده ، ولذلك نراه مهتماً بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء ، وعنده معمل سلاح صغير شاهدته بعيني انا وزميلاي هاشم بك الاتاسي رئيس الجمهورية السورية والحاج أمين الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وعلمنا أن هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في اوروبة ، ورأينا مصنوعات هذا المعمل عياناً ، ولنا الأمل بان تتسع دائرة هذا المعمل ، وأن يتأسس في البلدان العربية معامل أسلحة كثيرة تكون وافية بحاجات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أهلها ، ولا ننسى ان العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدمة الاقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل ، لأن على العرب واجباً لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين ، وهو أن لا يكونوا عيالاً على اوروبة في التسلح فانه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم وخير للأرض أن تستغني بمائها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها .

الشعر والشعراء

أما اللغة العربية من حيث هي ، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الاخيرة بجناحين وصارت إلى جلالها الماضي وعنجهيتها القديمة فكثر في السنين الاخيرة سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يحصون بالمئات إن لم يكن بالالوف ، ونبغ منهم فحول يقدر الانسان أن يلزمهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الاولى للاسلام عندما كانت اللغة في ابان سورتها فلا تنظر في جريدة إلا تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق لشبان لم تسمع في عمرك باسمائهم ، هذا عدا المفلقين والعباقر الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام ، ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الادب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل ، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله ، والحال انه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات ، وان كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين وإنما تجعله في صف المجيدين ، وقد كنا في سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة ، وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الانسي البيروتي يقرأ الانسان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شعره بلذة وكان قبل الانسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولهما قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم ، ولو انهما عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما ، وعلو طبقتهما ، وقد سأل الامير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامة قائلاً له : ما نسبة المعلم بطرس اليك في الشعر ؟ فأجابه : نسبة الثعلب إلى الأسد ، ولم يكن هذا الجواب صحيحاً لان لبطرس كرامة من الشعر لا سيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندي ، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت اسماؤهم في بلادنا مثل عبد الباقي العمري وصالح التميمي وعبد الحميد الموصلي وعبد الغفار الأخرس ، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا بسبب مراسلاتهما مع نصيف اليازجي كما ان شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة ، وهذه الطبقة ، وإن كانت تعد من الطبقة العالية في الأدب ، فان الذين جاءوا بعدها ردوها إلى الوراء فبعد أن كانت من المجلين صارت من المصلين ، أللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الارزي الذي لا يلز هؤلاء في قوته ، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأولين . وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلا بنبوغ محمود صفوت وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى ، وقد أجمع مؤرخو الادب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر ، وأنه الذي أعاد اليه ديباجته الاولى التي كانت القرون الاخيرة لا تعرف منها شيئاً ، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر الا مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية ، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجيدين من شعراء مصر وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الاجادة عن شعراء الأقطار العربية الاخرى ، وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشطير (أفاطم لو شهدت ببطن خبت) الذي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الاصل ، والذي له قصائد أخرى جياد ، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحداً بلغ مداه ، وقد هبت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

زيح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الاقصى ، وظهر شعراء ومترسلون يمكن ان يضعهم القارئ في صعيد واحد مع شعراء الشرق ، ومهما قيل في ترقي الشعراء في هذا العصر الاخير فأعظم منه قد كان ترقي الكتابة التي لم تتقدم في فصاحة الالفاظ وتنقيح الجمل فقط بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان بالمسحة العلمية والانشاء المرسل الملآن ، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يسمى كاتباً ، ولا نزاع في أن ترقي كل من فني الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي حملت المتأدبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه في زوايا المكاتب فسمت الهمم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لا تزال مجهولة ، أو مما ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء فصارت هذه الكتب من مثل ترسل ابن المقفع والجاحظ وأمثالها مشاعاً بين جميع عشاق الادب ، وكانوا كلما قرأوا كتب الاوربيين شعروا بحاجة الى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبدع ومجال أوسع فكأن اللغات الاجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الاعظم على اتقان العرب المحدثين للغتهم وارتوائهم من معينها ، ولا عجب في ذلك فالعلم يزيد بعضه بعضاً سنة الله في خلقه .

الفقه الاسلامي وعلماء الدين

هذا ما كان من جهة الادب العربي ، وأما من جهة الفقه الاسلامي فلا نقدر ان نقول انه تقدم الى الامام بل رجع في الحقيقة الى الوراء وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ ترجمت الدولة العثمانية هذا العلم عن قوانين اوربة الى التركية والعربية ، ومن عادة الناس أن يكون اكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم ، وليس كل العلم طراز مجالس . نحن أولاء قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار والشيخ سعيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسطواني والشيخ الطنطاوي والشيخ علاء الدين عابدين والشيخ محمد البيطار وأخيه الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الغني الميداني والشيخ محمد الخاني والشيخ جمال الدين القاسمي وغيرهم ، وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعولون على آرائهم في الدين والدنيا ، فلما انتشرت العلوم العصرية ومنها القوانين الاوربية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره ، وما زال الامر كذلك إلى ان كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرة ، وكذلك كان في بيروت الشيخ محي الدين اليافي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الاحدب ، وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة فمات كل هؤلاء ولم يخلفهم أحد ، وصار النبوغ للمحامين الذين تخرجوا في المدارس الاوربية أو في مكاتب الدولة العثمانية ، والمحامون بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران.

إلا انه نظراً لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بقي حملة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سورية ، وكان الواجب على هذه الامة في كل قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية فضلاً عن المسائل الاعتقادية.

الطب والأطباء والصيدلة

وأما الطب فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويوفقون فيها ، ومن الأطباء الشرقيين من يقيمون الآن في اوربة ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها ، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية في علم الطب حتى يقال انها في الدرجة الخامسة بالنسبة الى الدول الاخرى ، وقد نبغ فيها عدد كبير من الاطباء الجراحين يعدون في الطبقة العليا بالنسبة إلى أطباء اوربة وجراحيها أنفسهم منهم أتراك ومنهم عرب ومنهم أروام ومنهم أرمن ، ولا نقدر أن نقول أن سورية متأخرة في حلبة الطب هذه عن غيرها بل اني أتذكر انه لما نشبت الحرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العامة ، واحتاجت الدولة إلى أطباء لجيشها ساقت إلى الجيش ٢٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده وبقي عدد كبير منهم في البلاد . واليوم قد ازداد هذا العدد على ما كان عليه قبل ، وبلغني ان في دمشق وحدها اليوم (١٥٠) طبيباً ، وانا نرى خريجي مدارس الطب من السوريين يتعاطون صنعتهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها ، وما يقال في الطب يقال في الصيدلة التي لها ممثلون كثيرون من أبناء سورية ، وكذلك بدأ كثير من الشبان يدرسون في أوربة علم الجراثيم (البكتريولوجية) .

منافسة سورية للبلاد العربية

وما من علم يجد في أوربة إلا أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب ، فالمباراة إذاً جارية بكل ما يمكن من الهمة ، على أن سورية في علم الطب وتوابعه هي ذات المركز الاول في البلدان العربية ، وذلك لسبقها غيرها الى ورود حياض العلوم الكونية فلا مصر ولا العراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تضارع سورية في هذا الموضوع ، ولكن نحن على ثقة أن جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقي العلمي .

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب ، ولا سيما السوريين منهم ، العلوم العددية وقد نبغ الكثيرون ممن لا نقدر على احصاء اسمائهم نذكر منهم على سبيل التمثيل الشيخ محمد الطيبي في دمشق والمعلم بطرس البستاني والمعلم أسعد الشدودي في بيروت وغيرهم .

ولما كان السوريون من أقوى امم الارض على التجارة كان علم الحساب من العلوم التي يتخصصون بها بطبيعة الحال ، وكذلك في مصر لا ينكر ترقي العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها بل نقدر أن نقول ان المهندسين فيها أكثر منهم عدداً في سورية نظراً لأن الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سورية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الامة العربية في المستقبل من جهة الثقافة ! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمماتها إلى النهاية أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً أم تأخذ من الثقافتين معاً وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية ! هذا سؤال يرد كثيراً على خواطر الباحثين وكل منهم يذهب في الجواب مذهباً، وأظن أن ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية آخذة من التجدد بأوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي ، وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العباس وفي زمن بني امية بالاندلس حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطلعوا على علوم فارس والهند فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث ومن الثقافة العربية الأصلية ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى ، لكنها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الاحوال ، وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والاضافة اليه، ولن تكون منسلخة من القديم جاهدة في التبرؤ منه على النحو الذي نحاه الاتراك الكماليون الغالبون على تركية اليوم ، ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كل شيء أحسنه مع بقاء الصبغة العربية التامة غير المفارقة للعرب ، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم الاوربيين ولم يغب عنهم منها شيء ولا فاتهم من صناعات أوربة دقيق ولا جليل، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم وشرابهم وجميع مناحي حياتهم ، وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً للاحتذاء هذه الامة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشد منها رجوعاً إلى قديم ولا أخذاً منها بحديث .

والآمال معقودة بانه ستكون في الشرق الادنى نهضة عربية علمية تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لماذا تأخر الشرق الادنى عن الاقصى

وإن كان الشرق الادنى قد تأخر عن الأقصى في درجة الرقي العصري فلم يكن ذلك كما يتوهم بعضهم من جمود الامم الشرقية العربية وتفوق اليابانيين عليهم في حب العلم ونشدان وسائل القوة ، وإنما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرّضها من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية لما لم يتعرض له اليابانيون بسبب تقاصي ديارهم وبعد مزارهم بحيث خلا لهم الجو وتمكنوا من أن يتعلموا ويتهذبوا آمنين على حوزتهم ، وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطنوا لخطورته ، فحملوا بسبب غفلتهم عنه على الشريعة الاسلامية وجعلوها ظلماً وعدواناً هي المسؤولة عن هذا التأخر ، والمسؤول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسر في الشرق الادنى مالا يتيسر في الشرق الأقصى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

شكيب ارسلان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net